الأبعاد الدلالية للسياقات المتشابهة
في المعنى في النص القرآني

المدرس الدكتور
جليلة صالح صاحب

المدرس الدكتور
فضيلة عبد العباس

المدرس
تماضر قائد راضي

جامعة الكوفة ـ كلية التربية للبنات

الأبعاد الدلالية للسياقات المتشابهة في المعنى في النص القرآني

المدرس الدكتور
جليلة صالح صاحب

المدرس الدكتور
فضيلة عبد العباس

المدرس
تماضر قائد راضي

جامعة الكوفة ـ كلية التربية للبنات

المقدمة:

لما كان لفظ القرآن الكريم من الله تعالى، منقولاً إلينا نقلاً متواتراً قطعياً، وهو معجز بلفظه ومعناه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فإن المتدبر في ظاهرة السياقات المتشابهة لابد وأن يجد بين هذه السياقات المتشابهة توجيهاً خاصاً في مقاصد المعاني.

فالمعنى هو النتيجة المرجوة لكل نص، إلا أن هذا المعنى قد لا يتحقق في اللفظ فقط فهناك الظروف المحيطة بالحدث الكلامي وموجهات المعنى الداخلية والخارجية، فاللفظ وحده قد لا يكون قادراً على تقديم المعنى الإجمالي أو المحدد للنص القرآني، ولكن السياق هو الذي يحكم مجريات النص، ويتحكم في معطياته وبواعثه، ويحدد طبيعة هذا المعنى ويتحكم في إقصاء الاحتمالات الأخرى، أي أن السياق هو الذي يساعد على بيان معنى اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق؛ لذا لا يمكن أن نحكم على السياقات المتشابهة بأن لها مقصد واحد، أو أنها تهدف إلى غاية واحدة؛ وذلك بسبب ارتباط كل سياق بمحيط يختلف عن الآخر، فالباحث عن مناسبة وانسجام اللفظ مع سياقه يجد مقاصد وغايات من استعمال لفظ دون غيره وأسلوب دون آخر، فالسياق هو الذي يحدد المعنى والوظيفة التعبيرية لكل لفظ وجملة فيه؛ وهذا السبب هو الذي دفعنا إلى اختيار موضوع (الأبعاد الدلالية

للسياقات المتشابهة في المعنى في النص القرآني).

التمهيد:

السياقات المتشابهة (دراسة في المصطلح).

يعد السياق من المصطلحات التي لم تجد تحديداً دقيقا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن المصطلح ((قد يشيع بين الدارسين إلى درجة الابتذال، فيتوهم البعض أن هذا المصطلح واضح ومفهوم، فإذا ما حاولوا تحديد المعنى الذي ظنوا أنهم يفهمونه بدا الأمر عسيراً غاية العسرة، وغامضاً أشد الغموض، ومن تلك المصطلحات اللغوية الشائعة الاستعمال، العصية على التحديد الدقيق بشكل متفق عليه بين الدارسين: مصطلح (الكلمة)، ومصطلح (الجملة)، ومصطلح (السياق)))[١].

ولابد لنا، قبل ذكر ما يدل عليه السياق في الاصطلاح، من معرفة دلالته في الأصل اللغوي: فهو من ((المساوقة، وهي المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضاً))[٢]، يقال: ساقه: أي ((تابعه وسايره وجاراه، وتساوقت الماشية تتابعت، وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه))[٣].

أما في الاصطلاح فقد أورد الباحثون تعريفات عدة، منها:

- السياق: هو ((تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة))[٤] ويتحدد من خلالها المعنى المقصود، فهو يمثل المكونات الرئيسية التي تحيط بالنص وتتحدد من خلاله أبعاده الدلالية، والجو العام الذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن، فالكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل كل منها مدلولين متناقضين تماماً، دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي يتغير هو السياق والقرائن المحيطة.

- وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه، يقول الدكتور تمام حسان: المقصود بالسياق التوالي، ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين: ((الناحية الأولى: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الزاوية يسمى (سياق النص).

الناحية الثانية: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، وكانت ذات علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف)))[٥].

- أما الدكتور محمد علي الخولي يرى أن السياق هو: ((البيئة اللغوية المحيطة بالفونيم، أو المورفيم، أو الكلمة، أو الجملة. والنظرية السياقية: هي تفسير معنى الكلمة حسب السياق الذي تقع فيه)).[٦].

- وعد بعضهم ((السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموعة العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ، ويضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص، فلا يُفهم معنى كلمة، أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها، أو بالتي بعدها داخل إطار السياق))[٧].

ومما يلاحظ على هذا التعريف أنه ركز على الجانب اللغوي فقط من غير أن يعتني بسياق الحال، وهو السياق ((الذي يجري في إطار التفاهم بين شخصين، ويشمل ذلك المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهما، والكلام السابق للمحادثة))[٨].

- وعُرِفَ السياق أنه ((مجموع الوحدات اللسانية التي تحيط بعنصر معين داخل سلسلة الخطاب، وتؤثر فيه))[٩]. وهو ((بناء كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو

تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة))[١٠]، وهو ما يسمى بـ (القرينة الحالية) إذ أنه قد يعبّر عن القرينة الحالية بـ(السياق)[١١].

ويحدد السياق معنى الوحدة الكلامية على مستويات ثلاثة في تحليل النص هي[١٢]:

١- يحدد أية جملة تم نطقها.

٢- يخبر عن أية قضية تم التعبير عنها.

٣- يساعد على القول أن القضية تحت الدرس قد تم التعبير عنها بموجب نوع من القوة غير الكلامية دون غيره.

وقد شبه جون لاينز علاقات السياق بنسيج العنكبوت الواسع المتعدد الأبعاد، يمثل كل خيط فيه إحدى هذه العلاقات، وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة، وإنه يستحيل إعطاء معنى كلمة من دون وضعها في نص، أي أن السياق يعتمد على تجميع الكلمات بعضها مع بعضها الآخر، وترابط أجزائها وتتابعها بحيث توحي إلى معنى، وهي مجتمعة في النص[١٣].

فالسياق يقوم بتحديد العلاقات السياقية التي تربط الكلمات في التركيب، وتكسب قيمتها من مجاورتها الكلمة السابقة واللاحقة في أي تركيب أو نص، ويحدد السياق نوع هذه العلاقة.

وقد ذكر الدارسون المحدثون أنماطاً للسياق، يمكن إجمالها بنوعين[١٤]:

- السياق الداخلي: ويسمى أيضاً السياق اللغوي، ويشمل السياق الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي والقصصي.
- السياق الخارجي: ويسمى أيضاً السياق غير اللغوي، ويشمل: سياق المقام، والسياق الاجتماعي، والسياق التاريخي، وسياق الحال، وسياق الموقف.

نستنتج مما تقدم أن السياق هو بناء لغوي مترابط الأجزاء بعلاقات متشابكة، تجعل النص نسيجاً واحداً من الصعب اقتطاع جزء منه؛ لأن معنى الكلمة ومعنى التركيب لا يفهم على وجه الدقة إلا من خلال وجوده في النص؛ لأن أجزاء النص السابقة واللاحقة للكلمة والتركيب توحي بدلالة معينة، وتوصل المتلقي إلى فهم مقصد منشيء النص. فالسياق بما يحتويه من قرائن لفظية وقرائن حالية، يكون معيناً للمتلقي لفهم دلالات الألفاظ والتراكيب.

وعلى هذا قد لا تكون الآية القرآنية سياقاً بسبب ارتباطها بسابقاتها، ولاحقاتها، فيضطر المعني بفهم النص القرآني إلى قراءة ما سبقها وما لحقها؛ ليتوصل إلى فهم دقيق لمعاني الألفاظ، ومعاني التراكيب في تلك الآية؛ ولذلك قد يتكون السياق من تجمع عدد من الآيات، ارتبطت مع بعضها بعلاقة الوحدة الموضوعية، فقدّمتْ موضوعاً يمكن أن ينفصل بعض الشيء عن الموضوعات الأخرى التي تكونت منها السورة القرآنية، وإن كان هذا الجزء من السورة لا يستغني عن أجزاء السورة الأخرى؛ لفهم حقائق كثيرة تتعلق بهذا الموضوع.

وبناءً على هذا يمكن القول: إن السورة القرآنية سياق كبير يتضمن سياقات جزئية، يمكن فصل بعضها عن الآخر، ودراستها بشكل مستقل نوعاً ما عن الأجزاء الأخرى، وإن كان هذا الجزء لا يستغني عن السورة كاملةً لفهم أمور متعلقة به.

((والسياق القرآني يتحرك في هذا الفضاء الواسع،- نظام اللغة وما يحتمله بناء هذا النظام من تحول وتغير- بحيث يتم اختيار عنصر النسق وتوظيفه بصورة لا يدانيها غيرها للتعبير عن المضمون في الأنساق الأدبية الأخرى))[١٥].

وقد كان علماء التأويل من قبل يولون السياق أهمية قصوى ويستعينون بقرينة السياق في تحديد معاني الألفاظ المشتركة في كل موضع ترد فيه من القرآن. وكانت هذه القرينة عاملاً حاسماً في تحديد دلالات كثيرة من ألفاظ القرآن الكريم، وكانوا يستدلون بقرينة السياق في أكثر تأويلاتهم(١٦).

فإدراك قيمة السياق تتعزّز من خلال نظرتنا العميقة إلى الثابت والمتغير في اللغة، فالثابت يتمثل في وجود أطراف الإسناد وما يتعلق بها من متعلقات، أما المتغير فيتمثل في تحريك هذه الأطراف من أماكنها الأصلية، التي اكتسبتها من نظام اللغة إلى أماكن جديدة ليست لها في الأصل، وهكذا فإن دلالة السياق، تلقي بأثرها الدلالي على أنواع أخرى من السياقات: سياق اللفظ، وسياق الحال وغيرها.

أما التشابه: فهو لفظ يستعمل ويقصد به التماثل والتقارب بين شيئين أو أكثر في عدد من الصفات والخصائص. ويطلق التشابه في اللغة على ما تمثل من الأشياء وأشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يلتبس من الأمور(١٧).

وقد ذكر الراغب الأصفهاني(ت٤٢٥هـ): الشَّبه والشَّبيه حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية:كـ (اللون، والطعم، والعدالة، والظلم)، والشبهة: هي أن لا يتميّز أحد الشيئين من الآخر؛ لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى(١٨).

أما متشابه القرآن فإنه يطلق على نوعين:

الأول: للمتشابه المعنوي، وهو يقابل المحكم، أي الغامض المشكل مما أستأثر الله سبحانه بعلمه كعلم الغيبيات وعلم الساعة، أو أنه مما التبس فهم المراد منه من حيث خرج ظاهره عن دلالته على المراد به لشيء يرجع إلى اللغة، أو العقل أو غير ذلك(١٩).

أما النوع الثاني: فهو المتشابه اللفظي: والمراد به الآيات التي تكررت في

القرآن الكريم في قصصه أو موضوعاته في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، وفواصل شتى، وأساليب متنوعة[٢٠]، تقديماً وتأخيراً وذكراً وحذفاً وتعريفاً وتنكيراً وإفراداً وجمعاً وإيجازاً وإطناباً وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك مع اتفاق المعنى العام؛ لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق.

فمصطلح (التشابه) قد يلتبس معناه للوهلة الأولى بالآيات المتشابهات، التي تعرف في الشرع: بأنها في مقابل الآيات المحكمات، والتي نهى الشرع أن يخوض المسلم في شرحها بغير علم ولا هدى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٢١].

فالمتشابه مصطلح يحسن استعماله بحذر، ففي القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع آيات أخرى، إما لفظياً ومعنوياً، أو معنوياً فقط، ((ولا تختلف عنها إلا في مواطن قليلة، كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة أو في نحو ذلك))[٢٢].

وعليه تكون السياقات المتشابهة: هي ((أنساق تتميز بالتشابه أو التقارب في الصيغ التعبيرية القرآنية، ويترتب على التغير الجزئي فيها آثار دلالية جديدة، وغالباً ما تبدو حكمة هذا التغير وآثاره الجمالية والدلالية، وقد تخفى دلالة بعضها أحياناً أخرى))[٢٣].

فالتشابه قد يكون باللفظ والمعنى،أو بالمعنى دون اللفظ، وهذا هو موضوع بحثنا الذي يقوم على ظاهرة تشابه سياق الآيات في المعنى، أما تشابهها في اللفظ، وتنوع طرق التعبير اللغوي القرآني فسيبحث في بحث مستقل.

الأبعاد الدلالية للسياقات المتشابهة في المعنى.

هناك نوع من التشابه ورد في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وفي سور عدة منه، قد يتباعد بعضها عن بعض؛ لأغراض يقتضيها السياق والمقام، فيكون كل تعبير أنسب في مكانه، فاللفظ المشترك في كل آية يفيد معنى غير الذي يفيده في الآية الأخرى؛ لأن ما في هذه الآية لا يصلح أن يكون في الأخرى، فتشابه المعنى بلفظين مختلفين، هو لإشباع المعنى وللاتساع في استعمال الألفاظ، وإن ما تشابه من ألفاظ القرآن الكريم بألفاظ مختلفة، وإن كان المعنى واحداً، فإن له غرض مختلف، وهدف مميز، ودلالة معينة فهو تشابه في المعنى دون اللفظ إذ تختلف في طرق الأداء، فأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، وإن التشابه في المعنى دون اللفظ هو ما يرد كثيراً في القصص، كما هو الحال في قصص الأنبياء، كقصة آدم عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وغيرهم، أو آيات خلق الإنسان، والحيوان، والنبات، أو إحياء الموتى، وبعض الظواهر الكونية، كخلق السماوات والأرض، وآيات التحدي وغيرها.

ومن بين قصص الأنبياء نختار قصة آدم عليه السلام، فنتتبعها في سورتي (الحجر) و(ص)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢٤).

وقال تعالى في سورة (ص): ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(٢٥).

ففي سورة (الحجر) قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وفي سورة (ص) قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، إذ اختار سبحانه لفظ (صلصال) في سورة (الحجر) لانسجام هذا اللفظ مع اسم السورة (الحجر) الذي يعني المكان المحاط بالحجارة، قال الراغب: ((وسمّي ما أُحيط به الحجارة حجراً... وبه سمي حجر الكعبة وديار ثمود، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢٦)، وتصور من الحِجر معنى المنع لما يحصل فيه))(٢٧)، فالصلصال: الطين الجاف، وهو قريب من شكل الحجارة وماهيتها.

وقد بقي هذا اللفظ بدلالته منسجماً مع السياق العام للقصة التي وردت

في هذه السورة فبسبب جفاف الطين المذكور في مستهل قصة خلق آدم جوبه هذا الخلق بموقف جاف من إبليس، ونجد جفاف موقفه في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، فقد استعمل في عبارته (لام الجحود) في (لأَسْجُدَ) التي تُعبر عن موقف جاف لا ليونة فيه.

أما في سورة (ص) التي استعملت فيها لفظة الطين في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾، فلا نجد ذلك الرد الذي وصفناه بالجاف، وإنما كان الرد مختلفاً ومناسباً للسياق الذي ورد فيه.

وقد استعمل لفظ (أَبى) في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، إذ أورد - سبحانه- الفعل (أَبى) الذي بين رفض السجود فلم يكن من بين الساجدين لآدم والطائعين لله، والمنفذين للأمر الإلهي والإباء رفض شديد، وقد رفض تنفيذ الأمر الإلهي على الرغم من أن الملائكة أطاعوا وسجدوا كلهم أجمعين، وهذا اللفظ مناسب ومنسجم مع السياق العام للسورة؛ لأنها تتحدث عن أقوام خالفوا ورفضوا وعصوا الأوامر الإلهية فكانت عاقبتهم سيئة فقد أبت أقوام كثيرة الإيمان بالرسل الذين يدعون إلى الله سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾(٢٨).

أما في سورة (ص) فقد استعمل الفعل (اسْتَكْبَرَ) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وهذا مناسب للجو العام للسورة التي تحدثت عن نماذج من الاستكبار البشري، قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، فقوله: (اسْتَكْبَرَ) يحمل دلالة مضادة للسجود، لذا لم يأتيا في عبارة واحدة،

وأدى به الاستكبار لأن يكون من الكافرين؛ لأنه باب يؤدي إلى الكفر وكان الاستكبار المانع الحقيقي للسجود؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، ولم يرد لفظ (المنع) في سورة الحجر في هذه القصة.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه استعمل الجملة الخبرية: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ إلا أنها وضحت بصورة جلية في قول إبليس المتكبر: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، فتظهر ملامح الاستكبار واضحة من خلال فكرته الخاطئة التي بنى موقفه عليها بشعوره بالأفضلية منطلقاً من فكرة إن النار أفضل من الطين؛ لأنها تغلب الطين وتأكله، إذ ((خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وغاب عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وما من جهة الصورة، كما نبه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وما من جهة الغاية وهو ما خصَّه به من علوم الحكمة التي ظهرت بها مزيته على الملائكة حتى أمروا بالسجود؛ لما ظهر أنه أعلم منهم لما تدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وإن له خواص ليست لغيره))[٢٩].

وفي سورة (ص) وردت لفظة (لَعْنَتِي) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، فقد أسند اللعنة إلى ياء المتكلم، والمتكلم هو الخالق سبحانه وتعالى المطلق الذي لا تحده حدود فكذلك ﴿اللَّعْنَةَ﴾ ستكون كبيرة مطلقة لا حد لها، وقد جاءت منسجمة مع لفظة ﴿بِيَدَيَّ﴾ التي أسندت إلى ياء المتكلم في قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فيفهم أن هذا الخلق قد جعل الله له فضلاً لا حدود له وكرمه تكريماً مطلقاً ينطلق من الفضل والتكريم الإلهي؛ لذا استحق إبليس اللعنة المطلقة لأنه رفض السجود لمن كرمه الله تكريماً إلاهياً.

وقد التفت المفسرون إلى الفرق الدلالي بين اللفظتين: ﴿اللَّعْنَةَ ولَعْنَتِي﴾، فقال صاحب الميزان: ((أما جعل مطلق اللعنة عليه في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ فلأن اللعن يلحق المعصية وما من معصية إلا ولإبليس فيه صنع بالإغواء والوسوسة فهو الأصل الذي يرجع إليه كل معصية))[٣٠]، وأضاف سبباً آخر بأن إبليس هو أول من فتح باب معصية الله، فهو مستحق للّعنة لأنه رسم الطريق لسالكيه.

ولما كان الإعطاء والمنع في حقيقته لا يكون إلا من الله تعالى؛ لذا قال: ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾؛ ((لأن الإبعاد من الرحمة بالحقيقة إنما يؤثر أثره... وحقيقته المبالغة في منع الرحمة))[٣١].

ونرى أن لفظة لعنتي في سورة (ص) منسجمة مع السياق العام؛ لأن الاستكبار أكثر شناعة من الإباء ورفض تنفيذ الأوامر؛ لذا استحق الاستكبار ﴿لَعْنَتِي﴾، وهي العقوبة الأكبر من ﴿اللَّعْنَةَ﴾ التي جاءت في الحجر؛ لأن التكبر لا يليق إلا بالذات الإلهية، ولا يجوز لمخلوق أن يتقمص هذا الرداء كما جاء في الحديث القدسي: ((الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته))[٣٢].

ومما يلفت الانتباه في سورة الحجر إنها تميزت (بطابع التفصيل) في شرح المواقف فقدمت لقصة خلق الإنسان ببيان أصل الخلق الإنساني وأصل الجان في قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[٣٣].

ولم يذكر هذا التفصيل في سورة (ص) التي تميزت (بطابع الإجمال لا التفصيل)، والتي عرضت للقصة نفسها، ثم أن سورة الحجر كانت أكثر تفصيلاً في أصل الجنس البشري فبينت إن أصله: ﴿صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، بينما اكتفت سورة (ص) بلفظ (طين) للإشارة إلى أصل البشر وعلى الرغم من

تشابه الموردين إلا أن التفصيل يبدو واضحاً في أن ﴿صَلْصَالٍ﴾: هو الطين الجاف و﴿حَمَإٍ﴾: هو المنتن، و﴿مَسْنُونٍ﴾: هو المتغير (٣٤)، وفي ذلك تفصيل لنوع ذلك الطين.

ومما عزز المنهج التفصيلي في سورة الحجر تكرار عبارة: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ثلاث مرات، الأول في مقدمة القصة، والثانية على لسان الخالق، والثالثة ضمنها إبليس في قوله الذي يبين فيه سبب الرفض. ويمكن أن نرصد التفصيل في سؤال الخالق سبحانه لإبليس في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، إذ سأله عن حاله وكأنه أراد منه جواباً تفصيلياً.

أما في سورة (ص) فقد خصص السؤال بالمانع فقط، فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ فأراد بيان المانع فقط، فجاء الجواب مفصلاً في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، ففي هذه الآية نجد الرفض واضحاً في قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾، على حين أنه لم يصرح بالرفض للسجود وإنما اكتفى بعبارته الاستكبارية التي تبين المانع من السجود: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، فبقيت العبارة مفصلة فبين سبب رفضه بإعادة ما ذكره البارئ - عزّ وجلّ - في أصل النوع البشري فقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، وكأنه يبين سبب الرفض باعتقاده أن هذا المخلوق غير مستحق للتشريف والسجود؛ بسبب حقيقة أصله: ﴿صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، ولم يكتف بقوله: (لم أكن لأسجد لهذا المخلوق أو البشر)، ولم نجد هذا التفصيل في سورة (ص)، إذ اكتفى بعبارة ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وهي عبارة مجملة تضمنت فكرة المفاضلة العامة وفي طياتها بيان سبب

الرفض – من وجهة نظره – التي استهلها بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

ويبدو التفصيل واضحاً في نهاية القصة أيضاً بعد أن صار إبليس ملعوناً من الله سبحانه وتعالى، إذ شهر سيف العداوة لآدم وذريته متحدياً بذلك الخالق سبحانه فقال في قوله تعالى: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، نلحظ التفصيل في قوله هذا، إذ يصرح باعترافه بعدم حصوله على التوفيق الإلهي؛ لذا فهو عازم على أن يكون عدواً للجنس البشري بطريقة التزيين، أي تزيين المعاصي للإنسان لينحرف عن الصراط المستقيم، فتكون نهايته كنهاية إبليس الملعون.

ونجد التفصيل أيضاً في التحديد المكاني لعمله المشؤوم فخصصه: (فِي الأَرْضِ)؛ لأنه يعلم أنها مستقر البشر، على حين لا نجد هذا التفصيل في سورة (ص)، فقد أقسم بالعزة الإلهية بالإغواء فقط من غير تحديد لوسيلة الإغواء ومكانه، فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ويمكن أن نلمح التفصيل في الرد الإلهي على إبليس الملعون في سورة الحجر، إذ قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، فقد بيّن سبحانه أنه رسم صراطاً مستقيماً للمكلفين وأمرهم بالسير عليه، وسيسير عليه عباد الله المخلصين، ولن يكون لإبليس سلطان عليهم إلا من اتبعه من الغاوين، فسيكون مصيرهم جهنم، وقد فصل في بيان جهنم بأن لها سبعة أبواب، وسيكون لكل باب حصة من الذين أغواهم إبليس اللعين.

أما في سورة (ص) فقد ردّ سبحانه على إبليس بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فنجد الإجمال واضحاً في بيان عاقبة المتبعين لإبليس ولإغوائه.

ونجد التفصيل في سورة الحجر في الرد الإلهي على إبليس، فهو العالم بمجريات الأُمور، وبما هو كائن وما سيكون؛ ولذلك فصل سبحانه في اتّباع إبليس فبين أن هناك من سيكون لإبليس عليهم سلطان فيكون لهم قائداً وقدوة، وهؤلاء هم من عبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، وهم الذين يبالغون في اتّباع هذا القائد؛ ولذلك جاءت (اتّبعك) بالتضعيف، وقد اتّبعوه بعد أن زين لهم فرأوا المعاصي حسنات، أغواهم بالانحراف عن الصراط المستقيم؛ وبسبب اختلاف درجة الاتّباع فمنهم المبالغ ومنهم المقتصد، فصل سبحانه القول في بيان طبقات جهنم فقال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[٣٥]، أما في سورة (ص) فلم يأت التفصيل لسلطان إبليس على بني البشر، وإنما اكتفت السورة ببيان مصير المتبعين له في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فجاءت لفظة ﴿تَبِعَكَ﴾ من غير تضعيف، وهي تشير إلى الإتباع غير المبالغ فيه فلا يصل به الإنسان إلى مرحلة أن يكون لإبليس عليه سلطان، ومع ذلك فإن مصيره جهنم بسبب هذا الاتباع؛ لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان هذه القوى:

- القوة الشهوية.
- والقوة الغضبية.
- والقوة الوهمية.

التي يجب أن تكون تحت سيطرة (القوة العقلية)؛ ليبقى الإنسان على الصراط المستقيم، فإذا ما سيطرت عليه غير القوة العقلية كان متبعاً للشيطان بسبب إغوائه، فإذا بالغ في هذا الاتباع، وازدادت درجة سيطرة إبليس عليه فصار له عليه سلطان تحول إلى (شيطان بشري)، ولا يتحقق ذلك إلا بمداومة الاتباع (لخطوات الشيطان) إلى الحد الذي تخرج من مملكته الجنود الرحمانية،

التي وظيفتها الدعوة إلى طاعة الله سبحانه بشكل تدريجي، وفي الوقت نفسه يزداد توافد الجنود الشيطانية إلى أن تسيطر على المملكة كلها فحينها يصبح الإنسان مسيطراً عليه من قبل إبليس شخصياً، فيكون من أتباعه المقربين كالأمير في جيش إبليس، وهؤلاء يكون مصيرهم (جهنم الخلودية)، وهي المشار إليها في سورة الحجر.

أما من اتبع الشيطان اتباعاً غير مبالغ فيه كانخراطه في أوقات ضعف تسيطر فيها القوى: (الشهوانية، أو الغضبية، أو الوهمية) على القوة العقلية، إلا أن هذه السيطرة لم تدم، ولم تستغرق حياته كلها فقد كان مطيعاً لله عاملاً على تحصيل رضاه في أوقات أخرى فاستحق بسبب هذا الاتباع الوقتي (جهنم التطهيرية)، التي تعمل على تذويب وحرق الذنوب البشرية لتصفيته، والعودة به إلى جوهره النقي، وهي المشار إليها في سورة (ص)، وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[٣٦]، أي أزماناً محددة يقضون فيها مدة عقوبتهم لتنالهم بعدها الشفاعة والرحمة ليخرجوا منها؛ لأنهم لا يستحقون الخلد في جهنم، وبعد خروجهم جميعاً ينادي منادٍ - على وفق الروايات -: (خلود يا أهل الجنة)، (خلود يا أهل النار)، وهؤلاء لم تفرغ مملكتهم من الجنود الرحمانية فيبقون على اتصال مع خالقهم سبحانه حتى بعد إدخالهم إلى جهنم فيضجون إليه بالدعاء وطلب العفو والمغفرة، وهذا ما بينه دعاء الخضر عليه السلام الذي علمه الإمام علي عليه السلام إلى كميل بن زياد إذ جاء فيه: ((فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجّنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكين عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينك: أين كنت يا ولي المؤمنين؟... أفتراك سبحانك يا إلهي وبحمدك تسمع فيها صوت عبد مسلم سجن فيها بمخالفته وذاق طعم عذابها بمعصيته، وحبس بين أطباقها بجرمه وجريرته، وهو يضج إليك ضجيج

مؤمل لرحمتك؟... أم كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضلك ورحمتك؟، أم كيف يحرقه لهيبها وأنت تسمع صوته وترى مكانه؟ أم كيف يشتمل عليه زفيرها وأنت تعلم ضعفه؟ أم كيف يتغلغل بين أطباقها وأنت تعلم صدقه؟ أم كيف تزجره زبانيتها وهو يناديك يا رباه؟ أم كيف يرجو فضلك في عتقه منها فتتركه فيها؟... لكنك تقدست أسماؤك أقسمت أن تملأها من الكافرين من الجنة والناس أجمعين، وأن تخلد فيها المعاندين... أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون))[٣٧].

فالدعاء يُجسِّد صورة إنسان مؤمن بالله، إلا أنه ممن أُدخل جهنم بسبب معصيته لأوامر الله سبحانه بإغواءٍ من الشيطان، ومن خلال دعائه لخالقه يميز بين فئتين داخلتين إلى النار: منهم من يرجو الخروج منها، ومنهم من يخلد فيها، وهم المعاندون.

وعلى الرغم من تشابه المشهد الذي عرضته سورتا (الحجر) و(ص) من قصة آدم عليه السلام إلا أن لكل مورد غاية وهدف اختلف عن الآخر واتفق مع المحور الرئيس للسورة التي وردت فيها القصة، فقد كان محور سورة (ص) يدور ((حول كون النبي صلى الله عليه وآله منذرا بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعي إلى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى))[٣٨]، ومن الأمور التي حذرت الرسل أقوامها عصيان الله والاستكبار، لذا فقد بدأت هذه السورة ((بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم وبالجملة استكبارهم عن اتباعه والإيمان به، وصد الناس عنه وتفوههم بباطل القول))[٣٩]؛ لذا فان هذه القصة تقدم عبرة لمن اعتبر تتلخص في شناعة جريمة الاستكبار إذ تترتب عليها عقوبة كبيرة، فالاستكبار يؤدي إلى الكفر ويمنع الإنسان من تنفيذ الأوامر الإلهية على قداستها ويمنح المخلوق جرأة التعالي على الأوامر الإلهية وعلى المخلوقين حتى وإن كانوا أكثر تشريفا منه عند الله. أما سورة (الحجر) فقد قدمت درساً

آخر من خلال بيانها لموقف الرفض والإباء، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، و(أبى) ((كما يستفاد من استعماله القرآني وغيره دال على العصيان والرفض وشدة الامتناع ولا يصح إطلاقه على مجرد الترك والامتناع، فقد يترك المرء شيئاً ولا يأباه، كما قد يمتنع عن شيء ونفسه تهفو إليه، فأما (أبى) فيتجاوز ذلك ليجعل المتصف به متلبساً تلبساً كاملاً ظاهراً وباطناً إن كان له ذلك، إذ يترك الشيء ويمتنع عنه بقوة وإرادة وقناعة كاملة شاملة، فيتضمن (الإباء) قوة في اتخاذ الموقف لا يتضمنها الترك والامتناع))(٤٠).

فكان هدف سورة (الحجر) بيان عاقبة الرفض والإباء، والامتناع عن تنفيذ الأوامر الإلهية، فعرضت نماذجاً للرفض البشري للرسل وللرسالات السماوية ولما أمر به الخالق، ولم تتعرض لفكرة الاستكبار.

ومن السياقات القرآنية الأخرى التي تشابهت تشابهاً معنوياً الآيتين الآتيين:

قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾(٤١).

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤٢).

نلحظ هنا أن الآيتين ابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي هذه العبارة دعوة منه سبحانه للبشر للتفكر وأخذ العبرة والموعظة من المثل المضروب، وهي إحدى الأساليب القرآنية للدعوة إلى النظر في الخلق للتفكر فيه، أي أن يجعل الإنسان بصره باباً من أبواب الكشف المعرفي، وبعدما يرى الإنسان آيات الله بعينه الناظرة يجب أن يرسل هذه الصور إلى عقله المتفكر فيتدبر في

خلق الله تعالى؛ ليكتشف قدره الله وتجلى الخالق في مخلوقاته.

وقد جاءت هذه العبارة منسجمة مع الجو العام للسورة التي ترد فيها، إذ يبدو للمتأمل في سورة النحل - مثلاً - إنها تدعو إلى التفكر والتدبر في آيات الله وفي خلق الله ويبدو ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤٣)، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(٤٤)، و﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤٥)، و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤٦)، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾(٤٧)، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤٨)، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤٩)، ومما يعضد ذلك الآية التي تسبق الآية التي نحن بصددها، التي يبين فيها الله سبحانه وتعالى ما منحه للإنسان من وسائل أو آليات للتفكر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٥٠)، فقد منح سبحانه الإنسان السمع والأبصار والأفئدة ليستثمرها في التفكر في آيات الوجود ليصل إلى حقيقة الخلق والخالق فإذا ما استعملها الإنسان استعمالاً صحيحاً وموفقاً وصل إلى الإيمان بوحدانية الله وبآيات الله.

وتعد هذه الآية دعوة إلى درس من دروس التأمل، أو التفكر في خلق الله ليكتشف من خلالها المتفكر مجموعة من الآيات، ولا يوفق إلى ذلك إلا إذا كان من (القوم المؤمنين)؛ لذا لم يقل: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن المتفكر من غير إيمان قد يكتشف آية واحدة.

وعند تدبر الآيتين نلحظ أن هناك أُموراً افترقت فيها الآيتين منها مجيء ﴿صَافَّاتٍ﴾ في سورة الملك بصيغة اسم الفاعل، والفعل ﴿يَقْبِضْنَ﴾، المسند إلى نون النسوة التي تعرب فاعلاً، والعائد إلى الطير، تؤشر على منح الطير حرية اختيار الفعل والقيام به، فلها أن تصف أجنحتها لتطير، ولها أن تقبض لتهبط

من الطيران، فكانت في الحالتين الفاعلية لها وبإرادتها، لكن بإذن الله - سبحانه وتعالى - أي أن الفعل لا يتحقق إلا إذا وافق المشيئة الإلهية، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾، فعلى الرغم مما يتمتع به الطير من المسببات المؤهلة للطيران: كالأجنحة، والأذناب، والعظام الخفيفة، مع دقة الهواء وإمكانية اختراقه كما يقول المفسرون [٥١]، إلا أن ذلك لا يكفيها لأن يمسكها الهواء، لذلك جاءت الآية: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾.

وفي هذا الموضع في سورة الملك جاء الطير ليضرب مثلاً للذين كفروا وكذبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - بأنهم كالطير لهم حرية العيش في هذه الحياة، وجزء من الاختيار للأفعال فإذا رضي الله سبحانه عن أعمالهم أمسكهم كما أمسك الطير، أي حجب العذاب عنهم ووفر الأمان لهم، وإذا خالفوا الأوامر الإلهية وعصوا وكذبوا وكفروا لم يمسكهم، أي لم يحجب العذاب عنهم ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[٥٢]، ففي الآيتين الكريمتين تهديد مباشر للمكذبين بآيات الله بإنزال العذاب بهم، وهو سلب الأمان الذي كانوا يعيشون فيه ((وهم آمنون في دارهم مطمئنون إلى مكانهم طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره، ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسي، بعد أن هزت الأرض من تحتهم، وأثارت الجو من حولهم تهزهم على قهر الله وجبروته الذي لا يحسبون حسابه))[٥٣].

ومما تقدم يتضح أن مجيء ﴿صَافَّاتٍ﴾، و﴿يَقْبِضْنَ﴾ في هذه الآية الكريمة جاء موافقاً للهدف الذي تصبو إليه السورة بأكملها، فهي تقدم درساً للبشرية جمعاء من خلال تقديم نموذج الذين كفروا وكذبوا بآيات الله سبحانه فتمادوا

في فكرة أن لهم حرية اختيار الأفعال مطلقاً، فتصوروا أن كل شيء بإمكانهم فعله وليس لأحد سلطة عليهم، فكذبوا بوجود الخالق سبحانه، وحقيقة الأمر إن الإنسان مخلوق وله جزء من اختيار أفعاله، وان هناك سلطة عليا، إذا وافقت أعمال العباد ما قررته تلك السلطة نفذ، وما لم توافق عليه لا يمكن له أن يكون، وتتمثل السلطة العليا في الوجود بالذات الإلهية، فكل شيء وكل عمل من أعمال المخلوقات سواء كانت بشراً أو حيواناً أو غيرها، يجب أن يكون بمشيئة الله - سبحانه - وهذا ما أقرته الأديان السماوية كافة؛ ولذا جاء مثل الطير منسجماً مع الهدف العام للسورة فمنحته الفاعلية لفعل الصف والقبض، وذُيلت الآية بقوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾، دليل على تدخل الإرادة الإلهية في تنفيذ كل عمل، وتوفير الأمان للمخلوق الذي منح جزءاً من الحرية.

وهذا ما لم نجده في سورة (النحل)، بل على عكس ذلك جاء اسم المفعول ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ في سياق الآية، وخلت الآية من فكرة منح الفاعلية للطير، فالتسخير: هو التذليل للعمل(٥٤)، أي مذللات للطيران بما خلق لها من الأسباب المؤاتية ، وقد وردت لفظة ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ بهذه الصيغة هنا؛ لأن هدف السورة اختلف عن هدف سورة (الملك)، إذ ركزت سورة النحل على نموذج المستكبرين لتقديم الموعظة لهم، بأن فكرة الاستكبار فكرة خاطئة تؤدي بالإنسان إلى التكبر والتعالي على آيات الله فتجعلهم لا يؤمنون بالآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾(٥٥)، وتؤدي إلى الابتعاد عن الساحة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(٥٦)، وعاقبة الاستكبار سيئة؛ لأن مصير المتكبرين الخلود في جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى

﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٥٧)؛ ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ مثلاً للارتفاع الذي يعد الصفة التي تميز المتكبرين، فهم يتعالون على البشر، ويتمادون في ذلك لدرجة التعالي على رسل الله وما جاءوا به من شرائع وتعاليم، فجاءت الآية تضرب لهم مثلاً تجسد في الطير، إنه مهما ارتفع فإن ارتفاعه ووصوله إلى تلك الدرجات العالية في ﴿جَوِّ السَّمَاءِ﴾ متوقف على المشيئة الإلهية؛ لذا قال تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾، فإذا رفع سبحانه الإمساك عنه أدى به إلى السقوط، وكذلك البشر مهما ارتفعت به المناصب، وتسلل إلى نفسه شعور التعالي، فإنه لا يبقى في مكانه ولا يرتقي إلا بإذن الله سبحانه، فإذا قرر الخالق رفع يد العناية الإلهية عنه، فليس أمامه إلا السقوط وانهيار ما هم فيه، فتتنزل عروشهم وينزل عليهم العذاب من فوقهم، إذ يسلب الله الأمان منهم بعد شهرهم العداء له - جلَّ شأنه - وقد بلغوا بذلك درجة الخصم المبين حتى أنزل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون، وهذا ما يبينه قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾(٥٨)، وقال أيضاً: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾(٥٩)، فيكون سقوط المتكبرين بانهيار من أسفلهم وانهيار من فوقهم، وقد تكون لفظة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ مؤشراً على صدور العذاب من السلطة العليا التي تدير الكون، والمتمثلة بـ (الذات الإلهية) ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المتعالي والمتكبر ولاتليق هذه الصفات إلا له سبحانة؛ لذا ابتدأت السورة بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦٠)، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦١)، وقال أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٦٢)، وقد

نهى سبحانه البشر عن التعالي والتكبر، ولذلك ذيلت هذه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، إذ حصر التدبر وأخذ العبرة من هذا المثل بالمؤمنين دون غيرهم؛ لأنهم هم الذين يقودهم إيمانهم إلى التدبر، وأخذ العبرة والإفادة منها، فيجب ألا يجتمع الإيمان والتكبر في نفس واحدة، فالمؤمنون: ((هم المنتفعون بها وإن كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء))[٦٣]، على حين لا ينتفع غيرهم بما وهبهم الله تعالى من استعدادات ومدارك لإدراك النعم المادية والمعنوية، ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر بما وراء هذا الواقع القريب، ومن ذلك مشهد الطير الذي ذهبت الألفة بما فيه من عجب[٦٤]، وعليه فقد خُصِصَت الآيات بالمؤمنين؛ لأنهم بالإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء بخلاف أهل الكفر فإنهم بالكفر مطبوعين على النفرة من الاقتداء بالناصحين وإلى مكابرة الحق، فالطير مخلوق موجود فوق كل البشر فيمكن أن تدركه أبصار الناس جميعاً، إلا أن التدبر والوصول إلى آيات الله في هذا الخلق منحصر بالمؤمنين بتوفيق من الله تعالى، فالطير ((خلق يرونه كثيراً ولا يتدبرون معجزاته إلا قليلاً، ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر وترى قدرة الله الذي صور وقدر))[٦٥].

ومما افترقت فيه الآية الواردة في سورة (النحل) عن الآية الواردة في سورة (الملك) مجيء لفظ (مسخرات) في سورة النحل؛ ولعل السبب في ذلك -إلى جانب السبب الذي مرّ ذكره-إن فكرة التسخير،(تسخير المخلوقات للبشر)، مثل: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر... إلخ، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وسخر لكم﴾[٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[٦٧]، وقد أشار سبحانه إلى فكرة التسخير في السورة نفسها من غير أن يذكر لفظة سخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا

دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٦٨)، وقال أيضاً: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٦٩)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾(٧٠)؛ ولذا جاءت ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ في هذه الآية منسجمة مع سياق السورة، وجزء متمم للفكرة التي اعتنت بها.

وعند تأمل لفظة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ التي وردت في سورة (الملك)، ولم ترد في سورة (النحل)، نجد أنها تؤشر على الفوقية المكانية، فهي فوقية مادية ملموسة، فقد غفل الذين كذبوا بآيات الله عن حقيقة مؤداها: إن الأمن الذي يعيش في ظله المخلوق، سواء كان إنساناً أو حيواناً،هو بيده سبحانه، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾، ولم يتعظ أولئك من الطير الذي يعيش فوقهم وبقربهم، فقد عاش آمناً من السقوط؛ لأن يد العناية الإلهية تمسكه؛ لذا فإنه سبحانه سلب ذلك الأمن من الذين كذبوا فخسف ببعضهم الأرض، وأرسل على بعضهم حاصباً من السماء، وقد تشير لفظة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ على الفوقية المعنوية، أي أن الله سبحانه وتعالى: منح الطير مساحة أكبر من الحرية التي منحت للبشر فهو فوقهم من حيث اتساع الأفق الذي يتحرك فيه، ومع ذلك فإن الله - سبحانه وتعالى- هو المسيطر على هذا المخلوق، وهو الممسك له برحمته.

وقد اختلفت الآيتين في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ في سورة النحل، و﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ في سورة الملك؛ ولعل السبب في ذلك إن في سورة النحل جاء الطير مثلاً للمتكبرين، والتكبر فكرة مرفوضة في الشرع الإلهي، فهي معصية مباشرة للخالق، وعلى الرغم من ذلك فإن الله سبحانه يوفر الإمساك للمتكبرين، كما يوفره للطير في جو السماء بتأخير نهايتهم بالسقوط مما هم فيه فيمهلهم ليبتليهم ويدخر العذاب لهم على ظلمهم بإعطائهم

الفرصة، إما بالرجوع عما هم فيه بالتوبة، أو التمادي في غيهم وضلالتهم ليدخر لهم ما يستحقون من عقوبة؛ لذا يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾(٧١)؛ ولذلك جاء لفظ الجلالة (الله) ولم يختر سبحانه صفة من صفاته كما في سورة الملك؛ لأن الله هو المطلق الذي يحتوي كل الوجود فهو للطائعين والعاصين، وهو المدبر لهذا الكون فيكون إمساكه سبحانه إمهالهم مدة زمنية محدودة؛ لذا قال تعالى في سورة أخرى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾(٧٢).

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الآية هدفت إلى تفنيد فكرة الشرك، والشرك ادعاء باطل يمس منزلة الربوبية؛ لذا كثر ذكر لفظ الجلالة في هذه السورة، إذ ورد (ثلاثاً وثمانين) مرة؛ لأنه سبحانه أثبت من خلالها أن الله لا إله معه، وإن الله هو المنعم بأنواع النعم، وهو المسخر، وهو الهادي وهو القادر على كل شيء، وهو المرجع الذي ترجع إليه العباد طائعها وعاصيها؛ لذا نلحظ أن السورة ومنذ البداية ركزت على فكرة الشرك به سبحانه وإثبات وحدانيته؛ لأنه الخالق لكل الموجودات، وجعل الخلق مسخراً للإنسان الذي كرمه بالسمع والأبصار والأفئدة، وكل هذه النعم التي أغدقها عليه تستوجب الشكر، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾(٧٣)، ولا يمسك الخلائق إلا الله.

أما في سورة الملك قال تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾؛ لأن الآية منحت الطير، وهو مثل للبشر جزءاً من حرية اختيار الأعمال، وهذه المنحة من تجليات الرحمة الإلهية؛ ولذلك جعلت الآية الفاعلية في ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾، و﴿يَقۡبِضۡنَ﴾ للطير، وكأنه هو الفاعل المنفذ لهذه الأفعال، فتجليات الرحمة مصدرها الرحمن، وهذا ما بينته الآية الأولى من سورة الملك، قال تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٧٤)، فهو القادر على أن يمسك الخلق بيده.

وقد ورد لفظ (الرحمن) في هذه الآية مناسباً لسياق السورة التي ورد فيها هذا اللفظ أربع مرات، ولرب سائل يسأل: لماذا ذكر الله تبارك وتعالى صفة (الرحمن)، ولم يذكر (الرحيم)؟

وعند تتبع دلالة هاتين اللفظتين تبين للبحث ان لفظة (الرحمن) تميزت بأمور عدة، منها:

- إن الرحمن أبلغ من الرحيم مع أن كل من الصفتين دالة على المبالغة،هذا ما ذكره جمهور المحققين بناءاً على أن زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى، مع أن كل من صفتي (الرحمن) و(الرحيم) دالة على المبالغة في اتصافه تعالى بالرحمة.
- إن (الرحمن) أخص من (الرحيم)؛ لذا كان وصف الرحمن مختص به تعالى؛ لأن الرحمة له وصف ذاتي تصدر عنه آثاره بعموم واطراد، ومن هنا تقدم ذكرها في قوله تعالى في فاتحة الكتاب: (الرحمن الرحيم)(٧٥)، لأنه تعالى ((لما كان رباً للعالمين، وكان المربوبون ضعفاء، كان احتياجهم للرحمة واضحاً، وكان ترقبهم إياها من الموصوف بها بالذات ناجحاً))(٧٦).
- يدل وصف (الرحيم) على كون الرحمة كثيرة التعلق فهو من أمثلة المبالغة؛ لذا كان يطلق على غير الله تعالى(٧٧)، كما في قوله - جلّ شأنه - في حق رسوله ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٧٨)؛ لذا كان ورود صيغة (الرحمن) الدالة على الاتصاف الذاتي في سياق الآية التي نحن بصددها أولى في التوصيف من الصيغة الدالة على كثرة متعلقاتها "، وقد ذكر جمهور الأئمة أن وصف الرحمن لم يطلق في كلام العرب

قبل الإسلام، وإن القرآن هو الذي جاء به صفة لله تعالى؛ فلذلك اختص به تعالى حتى قيل: إنه اسم له وليس صفة))[٧٩]، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾[٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾[٨١]، وغيرها من الآيات ولاسيما في السور المكية، مثل سورة الملك موضوع بحثنا، إذ ذكر الرحمن ((باسمه الظاهر وضميره ثماني مرات، مما يفيد الاهتمام بتقرير هذا الاسم لله تعالى في نفوس السامعين، فالظاهر أن هذا الوصف تنوسي في كلامهم، أو أنكروا أن يكون من أسماء الله))[٨٢]. فآثر اسم (الرحمن) في قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ في سورة الملك، وقال في آية سورة النحل - وهي من القدر النازل بالمدينة - (ما يمسكهن إلا الله).

- إن صفة (الرحمن) من صفات الله التي تشمل المؤمنين والكافرين، أما (الرحيم) فهي صفة إلهية تشمل المؤمنين فقط، ((فهو الله الذي إليه مرجع العباد، وهو الرحمن يبين لعباده سبيل رحمته العامة للمؤمن والكافر، مما فيه خيرهم في وجودهم وحياتهم، وهو الرحيم يبين لهم سبيل رحمته الخاصة بالمؤمنين، وهو سعادة آخرتهم ولقاء ربهم))[٨٣]، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٨٤]، وقد روي هذا المعنى من طرق الخاصة عن الباقر عليه السلام، وعن الصادق عليه السلام في حديث: ((والله إله كل شيء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصة))[٨٥]، وروي عن الصادق عليه السلام: ((اَلرَّحْمٰنُ إِسْمٌ خَاصٌ بِصِفَةٍ عَامَّة، وَالرَّحِيمُ عَامٌّ بِصِفَةٍ خَاصَّة))[٨٦]، وكأن المراد هنا أن ((الرحمن خاص بالدنيا ويعم الكافر والمؤمن، والرحيم عام للدنيا والآخرة، ويخص المؤمنين، وبعبارة أخرى: الرحمن يختص بالإفاضة التكوينية التي يعم المؤمن والكافر، والرحيم يعم التكوين والتشريع الذي بابه باب الهداية والسعادة

ويختص بالمؤمنين؛ لأن الثبات والبقاء يختص بالنعم التي تفاض عليهم والعاقبة للتقوى))(٨٧)؛ لذا قيل: ((رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، رحمن رحمن المعاش ورحيم المعاد،... رحمن المصطفين ورحيم العاصين، رحمن الأشباح ورحيم الأرواح الرحمن بالنعماء الرحيم بالآلاء، الرحمن الذي الرحمة وصفه والراحم لعباده))(٨٨)، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾(٨٩) ولما كان مثل الطير هنا للمكذبين شملتهم صفة الرحمن؛ لأنهم من غير المؤمنين.

وقد ختمت الآية في سورة الملك ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، وتعني إنه سبحانه عالم ومطلع على كل شيء في الوجود، فعلى الرغم من أنه سبحانه قد منح المخلوقات جزءاً من الحرية في اختيار أفعالهم إلا أنه يريد منهم أن تكون تلك الأفعال على وفق قوانينه وشرائعه، ولا يريد لها العبثية، بمعنى أنها حرية مشروطة فعلى المكلفين من العباد أن يختاروا في - إطار هذه الحرية - الأفعال التي ترضي الله تعالى ويجتنبوا ما لا يرضيه، فالخلق لا يتركوا سُدى فقد أرسل سبحانه الرسل والأنبياء لترسم للخلائق صراطاً مستقيماً تسير عليه العباد؛ لكي ينالوا رضا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٩٠)، فإذا ما كذبوا وكفروا وتمادوا في أفعالهم، فإنه سبحانه عالم بكل حركاتهم وسكناتهم، وهو القادر على رفع العناية الإلهية التي تمسك الخلائق وتوفر لهم الأمان مما يؤدي بهم إلى سلب الحرية التي طالما تمتعوا بها بنزول العذاب الذي لا يستطيعون رده فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، جملة خبرية فيها ملمح تحذيري تدعو الخلق إلى الحذر من التمادي في الأعمال التي لا ترضي الله سبحانه.

فبعد أن منح الله تعالى - برحمته - البشر الحرية في الحياة الدنيا، فمنهم

من آمن ومنهم من كفر؛ ولأنه سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، فهو الذي يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(٩١)، وقال سبحانه ذاكراً العاصين: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٩٢)، بمعنى أن هذه أفعالكم ستحاسبون عليها وستجزون بها.

ومما تقدم يتضح أنه على الرغم من تشابه الآيتين إلا أن العبرة في كل واحدة اختلفت بحسب الجو العام للسورة فكانت كل آية منسجمة مع سياق السورة التي وردت فيها، ففي سورة (الملك) جاء الطير مثلاً للحرية واختيار الأفعال؛ ولذا يقال في المثل: ((حرٌّ كالطير)) فعلى الرغم من تلك المساحة من الحرية التي منحت للطير إلا أنه مقيد بالمشيئة الإلهية، فالسورة تقول للمكذبين مهما تمتعتم بالحرية الممنوحة لكم إلا أنكم تحت السلطة الإلهية.

أما في سورة (النحل) فقد جاء الطير مثلاً للارتفاع فأغلب المخلوقات على وجه الأرض تعيش قريباً أو على سطحها، أما الطير فله إمكانية الارتفاع عن السطح، وقد ضرب مثلاً للمتكبرين الذين يرتفعون بأنفسهم عن باقي البشر، ويتعالون على الناس وعلى الآيات، وأحياناً على الرسل والأنبياء عليهم السلام، فتقول لهم السورة: إنكم مهما ارتفعتم بتعاليكم عن البشر فقد يُسلب منكم الأمان في أيّة لحظة فيؤدي بكم ذلك إلى السقوط، وسلب الأمان يتجسد في غضب الله عليهم، وإنزال العذاب بسبب ما اقترفوه من ذنب المعصية لتعاليم السماء.

وبذلك نجد أن كل آية من هاتين الآيتين توجه أنظارنا إلى موضوع مستقل، وتفتح لنا باباً جديداً من أبواب العلم وتضع أيدينا على دقائق هذا الكون، وعند تدبر هذه الآيات نجد أن كل منها اختص بأُمور لم ترد في الأخرى.

الخلاصة:ـ

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- تنبه علماء اللغة القدماء قبل المعاصرين إلى ضرورة الرجوع إلى دلالة السياق لتحديد المعنى، وإن الألفاظ والتراكيب والنص بعد ذلك لا يفهم على وجه الدقة ما لم يربط بالسياق، وهذا دليل على أن السياق هو البيئة التي تتأثر بها دلالات الألفاظ والتراكيب، فإذا ما انتقلت الألفاظ إلى بيئة أخرى، أي سياق آخر أدت دلالات أخرى، وهذا يحتم على المتصدي لتحليل النص ربط جزيئات النص بالسياق للوصول إلى مقصد المتكلم.
- إن للسياق الأثر الأكبر في اختيار ألفاظ أو صيغ دون غيرها، فما يعلل هذا الاختيار، هو دلالة خاصة، ووظيفة خاصة لهذا اللفظ أو تلك الصيغة يقتضيها السياق، فالقرآن الكريم كان دقيقاً في اختياراته، إذ لو استبدلنا لفظ مكان آخر لما استطاع اللفظ الجديد أن يؤدي الدلالة والوظيفة التي قام بها اللفظ الأصلي، ولما استطاع أن يحقق الانسجام الذي حققه الأول مع السياق الذي ورد فيه، وهذا ما دفع علماء العربية إلى نفي الترادف التام وأجازوا شبه الترادف.
- إن الباحث في النص القرآني يجد أن النص متماسك إلى حد الإعجاز، فكأنه حلقات ارتبط بعضها ببعض، وخيوط كونت نسيجاً مُحكماً فلا تنكشف الدلالة القرآنية على الوجه الأمثل إلا بمراعات السياق، والبحث عن علاقاته الداخلية، وعلاقات النص بما يحيط به من ظروف، أي ما يسمى بـ(السياق اللغوي)، و(سياق الحال).
- ظنَّ بعض العلماء أن هناك تكرار لبعض القصص القرآني، لكن دراسة

هذه القصص في ضوء السياق يكشف أن كل قصة جاءت في أنسب مكان لها، وإن وجودها في سورة معينة يساهم في أداء الغرض الرئيس الذي تسعى له السورة، فضلاً عن مناسبة الأسلوب الذي تعرض فيه القصة للسياق العام الذي وردت فيه.

- تكثر ظاهرة السياقات المشابهة - التي أسماها أغلب الدارسين تكراراً - في النص القرآني، لاسيما تشابه مشاهد القصص، مما يدعو المتلقي إلى التفاعل الفكري مع الأحداث، كما يدعوه إلى البحث عن سر ذلك التقارب، فيجد أن التشابه حاصل في الشكل دون المضمون؛ لأن مجيء تلك المشاهد في سورة معينة، يؤدي إلى مقاصد وأهداف غير التي قصدتها في سورة أخرى.

- من أجل الوصول إلى فهم دقيق للسياقات المتشابهة في النص القرآني، لابد من الأخذ بنظر الاعتبار حال المخاطِب والمخاطَب، وموضوع الخطاب، والهدف منه، ومعرفة المقام، أو الظروف المحيطة بالنص، فضلاً عن دراسة السياق اللغوي للنص دراسة دقيقة ومعمقة للوصول إلى ما يمكن الوصول إليه من أسرارٍ عن طريق تأمله لمعرفة ما يفترق به كل سياق من السياقات المتشابهة بما يحويه من أبعاد دلالية.

- تبين للبحث بعد تحليل الآيات التي تشابهت سياقاتها أنها وإن اتفقت في بعض معانيها وبعض مفرداتها، فقد اختلفت في بعضها الآخر، الأمر الذي يضفي عليها صفة التنويع وينفي عنها صفة التكرار؛ لأنها جاءت في كل مرة تابعة لسياقها ومحققة لمقاصدها، إذ أن ما انفردت به كل آية مما لم يرد في غيرها له دلالة خاصة تميزه عن المعاني الأُخر، وقد انتظمت هذه المعاني من خلال فروق يدل عليها السياق.

هوامش البحث

(١) البحث الدلالي عند الأصوليين: ٢٨.
(٢) لسان العرب: ١٠ /١٧٦ (سوق).
(٣) ينظر: المعجم الوجيز: ٣٢٩، ٣٣٠.
(٤) معجم المصطلحات الأدبية:٢٠١.
(٥) قرينة السياق، (بحث)، (د. تمام حسان): ٣٧٥.
(٦) معجم علم اللغة النظري:: ٥٧.
(٧) أثر السياق في فهم النص القرآني، (بحث)، (د. عبد الرحمن بو درع): ٧٣.
(٨) الوظيفة الترجيحية للسياق عند المفسرين، (بحث)، (د. محمد إقبال عروة): ٧.
(٩) معجم علم اللغة النظري: ٥٧.
(١٠) معجم المصطلحات الأدبية: ٢٠١.
(١١) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ٢٨٨.
(١٢) ينظر: اللغة والمعنى والسياق: ٢٢٢.
(١٣) المصدر نفسه: ٨٣.
(١٤) السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، (بحث)، (د.خليل خلف): ٤٢.
(١٥) النسق القرآني (دراسة أسلوبية):٣٥٠.
(١٦) ينظر: التأويل اللغوي في القرآن الكريم: ٩٠.
(١٧) ينظر: الصحاح:٢٢٣٦/٦، مقاييس اللغة: ٣/ ١٨٩، لسان العرب: ١٠ / ٢٢٦ (شبه).
(١٨) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٢٢.
(١٩) ينظر: متشابه القرآن دراسة موضوعية:١٥ - ٥٣.
(٢٠) ينظر: البرهان في علوم القرآن:١١٣/١.
(٢١) آل عمران: ٧.
(٢٢) التعبير القرآني: ١٥٦.
(٢٣) النسق القرآني (دراسة أسلوبية):٣٧٠.
(٢٤) الحجر: ٢٦ - ٤٣.
(٢٥) سورة (ص): ٦٧ - ٨٨.
(٢٦) الحجر: ٨٠.
(٢٧) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٢٠.
(٢٨) الحجر: ١١-١٣.

(٢٩) البحر المديد: ٤٧٥
(٣٠) الميزان: ١٢ /١٢٧.
(٣١) المصدر نفسه: ١٢ /١٢٧.
(٣٢) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية: ١١٢ (رقم الحديث: ٩١).
(٣٣) الحجر: ٢٧.
(٣٤) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٤٨٨، الميزان: ١٢ / ١٢٣.
(٣٥) الحجر ٤٤.
(٣٦) النبأ:٢٣.
(٣٧) مفاتيح الجنان: ٩٩ - ١٠٠.
(٣٨) الميزان: ١٧ /١٥٠.
(٣٩) المصدر نفسه: ١٧ /١٥٠.
(٤٠) المعجم في فقه لغة القرآن وسر فصاحته:١/١٨٩
(٤١) الملك: ١٩.
(٤٢) النحل: ٧٩.
(٤٣) النحل:١١.
(٤٤) النحل:١٣.
(٤٥) النحل: ١٧.
(٤٦) النحل:٤٤.
(٤٧) النحل: ٦٥ -٦٦.
(٤٨) النحل: ٦٧.
(٤٩) النحل:٦٩.
(٥٠) النحل:٧٨.
(٥١) ينظر: الكشاف: ٥٨٠، التفسير الكبير:٢٠/٩١، التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٣٥.
(٥٢) الملك:١٦، ١٧.
(٥٣) في ظلال القرآن: م٦، ٢٦ /٣٦٣٠.
(٥٤) مجمع البيان: ١٠/٥٩.
(٥٥) النحل: ٢٢.
(٥٦) النحل: ٢٣.
(٥٧) النحل ٢٩.

(٥٨) النحل ٢٦.

(٥٩) النحل: ٤٥.

(٦٠) النحل: ١.

(٦١) النحل: ٣.

(٦٢) النحل: ٤٩، ٥٠.

(٦٣) التفسير الكبير: ٢٠/ ٩١.

(٦٤) ينظر: في ظلال القرآن: م٦، ٢٦ /٣٦٣٠

(٦٥) المصدر نفسه: م٦، ٢٦ /٣٦٣٠.

(٦٦) النحل: ١٢.

(٦٧) النحل ١٤.

(٦٨) النحل: ٥.

(٦٩) النحل: ٨.

(٧٠) النحل ٨٠، ٨١.

(٧١) النحل ٣٣.

(٧٢) آل عمران: ١٧٨.

(٧٣) النحل: ٥٣.

(٧٤) الملك: ١.

(٧٥) الفاتحة: ٣.

(٧٦) التحرير والتنوير: ١/١٧٣.

(٧٧) المصدر نفسه: ١/١٧٢.

(٧٨) التوبة: ١٢٨.

(٧٩) التحرير والتنوير: ١/١٧٢.

(٨٠) الفرقان: ٦٠.

(٨١) الرعد:٣٠.

(٨٢) التحرير والتنوير: ١/١٧٢.

(٨٣) ينظر: الميزان: ١/١٦.

(٨٤) الأعراف: ١٥٦.

(٨٥) الكافي: ١/ ١٦٦.

(٨٦) الأمثل: ١/٣٣، نور الثقلين: ١/١٤، جوامع الجامع:١/٤٥.

(٨٧) الميزان: ١/٢٤.
(٨٨) أدب الترهب في القرآن الكريم (بحث)، (د. أحمد علم الدين): ٥٠.
(٨٩) الأحزاب ٤٣.
(٩٠) الملك: ٢٢.
(٩١) الملك: ١٢.
(٩٢) الملك: ١١.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
- الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، محمد منير بن عبده الدمشقي الأزهري، (ت١٣٦٧هـ)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، الشَيخ نَاصِر مَكارم الشِيرازي، الموقع الرسمي للمؤلف: http://www.makaremshirazi.org/books/arabic.htm
- البحث الدلالي عند الأصوليين، د. محمد يوسف حبلص، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت،١٤٢١هـ،٢٠٠١ م.
- التأويل اللغوي في القرآن الكريم،حسين حامد الصالح، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، بغداد ١٩٩٥م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار كنوز للنشر والتوزيع، تونس، (د.ت).
- التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة،١٩٨٧م.
- التفسير الكبير، (مفاتيح الغيب)، للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، المطبعة البهية، مصر (د.ت).
- جوامع الجامع، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامية بقم، منشورات شبكة الكوثر الإسلامية: www.al-kawthar.com/maktaba

- الصحاح في اللغة تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل الجوهري، تحقيق: أحمد العطار، دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ.
- في ظلال القرآني، سيد قطب، دار الشروق،القاهرة، ط٣٢ (طبعة مصححة ومنقحة)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
- الكافي، الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، للتصحيح محمد الأخوندي، (د.ت).
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ي وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: خليل محمود شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١٤٢٣،١هـ، ٢٠٠٢م.
- لسان العرب، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم أبن منظور الأنصاري المصري (ت٧١١هـ)، تحقيق: د. أحمد سالم الكيلاني، ود. حسن عادل النعيمي، مركز الشرق الأوسط الثقافي، ط١٤٣٢،١هـ، ٢٠١١م.
- اللغة والمعنى والسياق، جونز لاينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧م.
- متشابه القرآن (دراسة موضوعية)، د. عدنان زرزور، دار الفتح، دمشق، ط١، ١٣٨٩هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، (ت ٥٤٨ه)، المجمع العالمي لأهل البيت:
http://www.ahl-ul-bayt.org/Final_lib/index_arabic.htm
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، المكتبة الأموية، ط٤، ١٩٨٣م.
- معجم علم اللغة النظري، د. محمد علي الخولي، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٢ م.
- المعجم في فقه لغة القرآن وسر فصاحته، إعداد: قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلامية، بإرشاد وإشراف مدير القسم الأستاذ: محمد واعظ زادة الخراساني، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للإستانة الرضوية المقدسة، مشهد، ط١، ١٤١٩هـ
- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، ١٩٨٦م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، د.مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مطابع: شركة الإعلانات الشرقية ودار التحرير للطبع والنشر، مصر.

- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، مطبعة بعثت، انتشارات لقاء، قم، ١٣٨٢هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم،دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط١٤٢٥،٤م.
- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا (ت ٣٩٥ه)، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون الناشر: اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، تحقيق: أياد باقر سلمان، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١٤٢٧،١هـ، ٢٠٠٦ م.
- النسق القرآني (دراسة أسلوبية)، د. محمد ديب الجاجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، السعودية، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ،٢٠١٠م.
- نور الثقلين، الشيخ عبد على بن جمعة العروسي الحويزي (ت١١١٢هـ)، (د.ت)، (د.ط).

الدوريات والبحوث:

- أثر السياق في فهم النص القرآني، د. عبد الرحمن بو درع، مجلة الإحياء المغرب، العدد الخامس والعشرون، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- أدب الترهيب في القرآن الكريم، د. أحد علم الدين، مجلة الفكر الإسلامي، العدد الخاص، دار الفتوى، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، د. خليل خلف بشير العامري، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد التاسع، العدد الثاني، ٢٠١٠م.
- قرينة السياق، د. تمام حسان، (بحث قدم في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم)، مطبعة عبير الكتاب، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
- الوظيفة الترجيحية للسياق عند المفسرين، د. محمد إقبال عروة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، العدد الخامس والثلاثون، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.